

سورية: صراع الوجود...ممر لا يموت

الكرة الأرضية بما تحتويه من ميزات و خصائص ، تتوزع على عديد البلدان ،يكتسب بعضها أهمية كبيرة خاصة إذا ترافقت هذه الميزات مع حضارات بشرية و أوابد تاريخية على امتداد العصور ، رغم أن بعض هذه البلدان لا تحتوي على ثروات باطنية ضخمة تأهلها لتكون من الدول المتصدرة ، لكن حباها الله موقعاً جغرافياً هاماً ، استطاعت الشعوب التي تعيش بها أن تجعله ذو أهمية على مدار التاريخ..

و هكذا يصبح المكان ليس مجرد مساحة على الأرض بل يتعدى هذا ليكون عنواناً وسمة يتصارع عليها الجميع ، خاصة عندما يتلاقى التاريخ و الجغرافيا، ليصبح الموقع عبارة عن ذاكرة و اهتمام و سعي و هدف و محرك للتاريخ.

إن أهمية أي موقع ليست قدرأ حتمياً، بل يكتسب قوته من ساكنيه، فلا يمكن أن يكون مهماً، تابعاً، يعيش على حساب الآخرين، بل هو من يعطي الآخرين طعماً للحياة و الازدهار.

أن الموقع السوري ليس نقطة على الخريطة فقط بل هو امتداد لحضارات و امبراطوريات بنت كياناتها و ازدهرت و جعلت الجميع يمد يده لها، فالأشورية والكلدانية و الآرامية ثم الرومانية و الإسلامية لم تكن محطات عابرة، بل كان لها التأثير و الوجود لفترات طويلة ، و من خلالها تواصل الجميع، فطريق الحرير كان يمر فيها، و التجارة البحرية خرجت من أراضيها و دولة الأندلس بنت أوج حضارتها على أيدي أبنائها.

حاول الكثيرون جرها للحروب و السيطرة عليها، أرادوا كسر شوكتها و عنفوانها ،فكان التتار و المغول و كان العثمانيون و الصليبيون، استقبلت النازحون من ديارهم ، احتضنتهم كالأم ، فكانوا عوناً لها و زاداً،

لا يمكن للحديث عن سورية، أن يكون عابراً بكلمات و ترانيم، بل هو حجر الأساس في تشكل المنطقة، و رب قائل إن من يحكم دمشق يحكم المنطقة.

تتمتع هذه الأراضي بتلاقي الشعوب و الحضارات، نسجت فيما بينها خيوطاً و علاقات مبنية على الود و السلام، إلا أولئك العابرون للتاريخ ، أصحاب القلوب السوداء، و الأفكار الشيطانية الذين أتوا ليعكروا بنيان هذا الانسجام .

سوريا في طريق الحرير: من المركزية القديمة إلى التهميش المعاصر

في التاريخ القديم، كانت سوريا هي "الميناء البري" الحتمي. أما اليوم، ومع انطلاق مبادرة "الحزام والطريق" الصينية عام 2013، نجد مشهداً مغايراً. لقد اختارت الصين، بدافع البراغماتية الشديدة، الابتعاد عن الساحة السورية في ذروة الصراع والثورة، مفضلةً مسارات أكثر استقراراً. هذا التجنب لم يكن إلغاءً لدور سوريا، بل "تجميداً" له، إن محاولات الالتفاف على الجغرافيا السورية عبر مراكز لوجستية في دبي أو غيرها، ليست إلا دليلاً على أن "التنين الصيني" لا يبحث عن تنمية حقيقية، بل عن مسارات آمنة لاستثماراته، حتى لو كان ذلك على حساب تغييب الدور السوري الريادي. حيث سعت بكين لخلق تشعبات ومسارات بديلة (خطة ب و ج) لضمان تدفق بضائعها بعيداً عن بؤر التوتر، محولةً مراكز مثل "جبل علي" في دبي إلى مستودعات تجميع عملاقة تعوض مؤقتاً الغياب القسري للجسر البري السوري.

"الغزو الهادئ" وتوطين التجارة في أوروبا

بينما بقيت سوريا في حالة انتظار، كان التنين الصيني يغير قواعد اللعبة داخل أوروبا. فمن خلال مراقبتنا للمشهد من بولندا وهولندا، نرى انتشاراً كثيفاً للمواطنين والشركات الصينية التي لم تكتفِ بالتصدير، بل استوطنت اقتصادياً. إن وجود حافلات (BYD) في الشوارع الأوروبية والآليات الثقيلة الصينية يعكس استراتيجية السيطرة على "المتر الأخير" في التجارة. هذا الانتشار البشري والاقتصادي الصيني في قلب القارة العجوز هو المحرك الذي سيعيد الاعتبار للمسار السوري؛ فالحاجة للوصول السريع والأمين من المتوسط إلى هذه القواعد الأوروبية ستجعل من سوريا ضرورة لا غنى عنها في حال تعثرت المسارات الأخرى.

جدران الصد: الفيتو الأمريكي والمشاريع المأزومة

على الجانب الآخر، تصطدم الطموحات الجيوسياسية بـ "الواقعية السياسية" القاسية. فمشروع "الربط السككي" (إيران-العراق-سوريا) الذي تم الحديث عنه عام 2021 ، أصبح يواجه عقبات كأداة سياسية مرتبطة بمحاور صراع وعنف و قتال تاريخية، مما يجعله مشروعاً فاقداً للشرعية الدولية والقبول الشعبي. في الوقت ذاته، تبرز استراتيجية واشنطن في "منع الفراغ"، حيث تسعى الاستخبارات الأمريكية لقطع الطريق على تمدد الصين نحو "المياه الدافئة" في المتوسط. بالنسبة لأمريكا، بقاء سوريا خارج منظومة طريق الحرير هو وسيلة لخلق التمدد الاقتصادي لخصومها ومنع تحول الموقع السوري إلى قاعدة انطلاق صينية نحو أوروبا.

تنافس "البوابات": و سرعة المسارات في ميزان المصالح

حسب رؤيتنا، نجد رغبة صينية حثيثة تتلاقى مع رغبة وطنية جامحة في تحويل وارسو إلى "عقدة التوزيع" المركزية في أوروبا الشرقية، مستفيدة من المسار الشمالي. هذه "الأنانية الجيوسياسية" المشروعة تجعل الاهتمام بالمسار السوري ثانوياً، بل ربما يُنظر إليه كمنافس قد يسحب البساط من المسارات البرية الشمالية. إلا أن الحرب الروسية الأوكرانية أثبتت هشاشة الطريق الشمالي، وأعدت طرح السؤال الجوهرى: هل يمكن للعالم أن يستغني عن "صمام الأمان" السوري الذي يربط الشرق بالمتوسط بعيداً عن تعقيدات السهول المتجمدة في الشمال؟

خاتمة

إن الجغرافيا السورية هي "قدر" لا يمكن إلغاؤه، لكنه قدر يجب أن يُدار بعقول وطنية تدرك مخاطر "التبعات". إن طريق الحرير الذي نريده هو ذلك الذي يحفظ الكرامة الوطنية والسيادة الاقتصادية، لا ذلك الذي يجعل من بلادنا حلقة في سلسلة من الديون والنفوذ الأجنبي. سنظل الـ "لا" قائمة بوجه كل مشروع لا يضع مصلحة الإنسان السوري وسيادة أرضه فوق حسابات "الحزام" وتوازنات "الطريق".